صورٌ من الجزيرة

المغتربات .

جارة النبي .

العابدة .

آمنـــة .

obeikandl.com

obeikandl.com

المغتربات

« . . . ليتنا نقدر أن الغرب الغالب ، يدين لهؤلاء المغتربات بأكثر ما يتمتع به من نفوذ سياسى واقتصادى ، فى أرضنا الطيبة التى اغتصبت زماناً ، وشرقنا الذى غلب طويلا واستبيح ! » . . .

لقيتهن هناك فى صحراء الجزيرة ، قد تخلين طائعات عن الحياة الناعمة فى أوطانهن ، وتبعن أزواجهن إلى ذاك المهاجر النائى الموحش ، ليهيئن لهم من دفء العش وأنس الأسرة ، ما يعينهم على العمل الشاق المرير ، بين الصخور والرمال . . .

لقيتهن هناك فى الدهناء : أمريكيات وأوربيات وأسيويات : عصريات مثقفات ، قد رضين بالعيش فى تلك الفلاة المهجورة يمسحن بأناملهن الرقيقة العرقَ المتصبب من جباه رجالهن العاملين فى وقدة الرمضاء . . .

ورأيتهن هناك : ابتسامةً وضيئة فى وجه الصحراء الغضوب وأطيافاً رقيقة أنيقة وسط المهمه القفر ، ونغمة عذبة ، تسرى أصداؤها فى الأفق ، لتهدهد الرجال الذين يعملون بين

ضجيج الآلات الضخمة الماردة ، وصفير الرياح الصرصر العاتية ، وعواء الوحوش الضالة الهائمة . . .

* * *

لقد استطاعت الثروة المتدفقة من آبار الذهب الأسود ، أن تبنى للوافدين مساكن طيبة ، تحيط بها حدائق مزهرة تصد عنها بعض لفح الهجير وعواصف الرمال ولطمات الرياح السافيات !

ولم يشق على « شركة الزيت » أن تضفى على مساكن رجالها بالكهربا ، وتكيف فيها الهواء ، وتزودها « بالتليفون والراديو والفريجيدير » لكنها لم تكن لتستطيع — ولو ظفرت بمال قارون وعثرت على كنوز سليمان — أن تزود عن الرجال الضجر والملال ، أو أن تمس مساكنهم بتلك اللمسة اللطيفة التى تتركها الأنثى حيثما مست يداها ! أو أن تلقى على المساكن المزودة بآلات التبريد والتسخين والإضاءة والتكييف ، ظلالاً من الأنس واللطف والرقة والحنان ، كتلك التى تلقيها الزوجات والأمهات ! !

هن اللواتى يجعلن المساكن بيوتاً ، ويبعثن الحياة فى ذلك الخراب اليباب ، وينبتن فى الأرض القاحلة الماحلة ، زهرات

إنسانية يانعة ، تعطر الجو الصحراوى بأريج الطفولة الباسمة المتفتحة للحياة !

ومن أجل هؤلاء الأطفال ، أنشئت المدارس والملاعب فى منطقة الزيت بالصحراء ، واستطاب الآباء مرارة الكفاح ، واستمرأوا طعم العيش مع وحشة الاغتراب !

* * *

ومضيت ألتمس مصريًّا واحداً بين الرجال العاملين فى شركة الزيت ، فلم أجد !

وقيل لى فيما قيل : إن الجزيرة ألحت فى طلب مهندسين وأطباء وعمال من أبناء مصر ، فلم يستجب لها أحد ، كما استجاب آخرون : من الهند ، وإندونيسيا ، وسوريا ، ولبنان ، وفلسطين ، وأوربا ، وأمريكا . .

لماذا رفض المصريون أن يستجيبوا لدعوة الجزيرة ، مع أنها تلقاهم بترحاب لا يظفر به أجنبى ، وتنزلهم بين أبنائها مكاناً تضن به على الغربيين الغرباء ؟

لسبب بسيط ، هو أن المصريات — حتى عام رحلتى : ١٩٥١ — كن يأبين الهجرة إلى هذه المنطقة من قطر شقيق ،

ويرفضن أن يتبعن أزواجهن إلى نجد ، والأحساء ، مهما تكن المغريات !

أليس من العجيب أن تعيش هناك غربيات لا يعرفن حرفاً من العربية ، ولا يؤذن لهن بأن يؤدين شعائر دينهن ، إذ الجزيرة تحرم بناء الكنائس ودق النواقيس ودخول القسس والرهبان ، فى الوقت الذى تأبى فيه تلك الحياة . مصريات ينزلن هناك بين أهل وجيران ، وإخوان فى الجنس واللغة والدين ؟

أليس من العجيب أن ترضى بالعيش فى «الظهران» ، غربية عصرية ، قد تكون ولدت فى نيويورك أو روما أو باريس ، ولا ترضى به مصرية قد تكون مولودة فى إحدى قرى الريف أو نجوع الصعيد ؟

لكن لا . . .

ليس فى الأمر ما يستغرب ، فكذلك كانت نساؤنا من قديم الزمان ، وهكذا خُلقن ، والأمر لله ! .

إن المصرية تأبى أن تنزح من القاهرة إلى الفيوم ، أو من الإسكندرية إلى دمنهور ، ويندر أن ترى قاهرية ترضى بالزواج من رجل يعيش فى الريف . ولو كان من ملاك الأراضى وأصحاب الضياع !

ويتعذر على شبابنا المتعلمين الذين يعملون فى الأقاليم ، أن يجدوا زوجات صالحات ، يحتملن العيش بعيداً عن أضواء

العواصم ! وأعرف من فتياتنا المخطوبات من تشترط لإتمام عقد الزواج أن ينقل الخطيب إلى القاهرة . .

وتستطيع إدارة الإحصاء أن تضع بين أيدينا أرقاماً — لاتكاد تُصدَّق — عن طالبى النقل إلى كبريات المدن !

فهل نعجب إذا لم نجد بيننا من تتبع زوجها إلى الصحراء فى جزيرة العرب ؟ !

إنى لأذكر زوجات بعض الموظفين فى إحدى المزارع النموذجية قرب القاهرة ، فى منطقة أشبه بالجنة ، وقد رفضن مع ذلك أن يعشن هناك فى (الڤيلات) الأنيقة المضاءة بالكهربا ، والمتصلة بالعاصمة بخطوط تليفونية مباشرة ! وآثرن جحيم المدينة على جنة الريف . . .

وهناك فى المنطقة نفسها — وهى مكتظة بمصانع لأجانب ومتمصرين — تعيش سيدات غربيات غريبات ، يفهمن حق الفهم دورهن فى الحياة ، ويؤمنّ برسالتهن نحو رجالهن وأوطانهن !

فليتنا ندرك أن الغرب ، بدين لهؤلاء المغتربات بأكثر مما يتمتع به من نفوذ سياسى واقتصادى ، فى أرضنا الطيبة التى اغتُصبت زماناً ، وشرقنا الذى غُلِب طويلا واستبيح ! !.

الظهران : ١٠/٢/١٩٥١

جارة النبى . . .

« قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم »

سعينا إلى الحرم النبوى فى جلوة الفجر ، يحدونا دعاء السماء الذى ظلت مآذن المسجد الطاهر ترسله منذ نحو ألف وأربعمائة عام ، فتسرى به الملائكة ملء الدُّنى ، وتُرَجِّعه الأطياف السارية على أجنحة من النور ، وتتجاوب به القمم والسفوح والوديان فى رنين علوى النغم ساحر الأصداء ، فإذا الكون كله تسبيحة مؤمنة وترنيمة هائمة !

وإذ بلغنا باب المسجد ، خلعنا نعالنا وسرنا خُشَّعاً نحو الروضة الشريفة ، وقد صفا الحس . وشفَّ الشعور ورقّ القلب ، واندمجت شخوصنا المتعبدة فى ركب الأرواح المطيفة بحرم النبى ، الحائمة حوله ، نكاد نميز فيها أطياف الصحابة الأبرار من المهاجرين والأنصار !

حتى إذا قضيت الصلاة . انتشر القوم خارج المسجد ساعين إلى أرزاقهم ، وبقيت قلة من الذين انقطعوا عن الدنيا وآثروا

جوار الرسول على كل متاع فيها ، وآخرين أرهقتهم الهموم والأحزان فلاذوا بنبيهم الكريم . يسألون الله تعالى بحق هذا النفس الطاهر فى المكان الطاهر ، أن يرفع عنهم الكرب ويدفع السوء والبلاء . . .

* * *

وكنت قد اخترت مكاناً منفرداً فى الحرم ، أتأمل ، وأحاول أن أستحضر الذى وعيت من مشاهد التاريخ الإسلامى منذ عام الهجرة ، إلى أن لبى المصطفى نداء ربه ، وثوى جسده الطاهر ، صلى الله عليه وسلم ، فى هذه البقعة المباركة الباقية على الزمن ، مزاراً مقدساً يحج إليه المسلمون من شتى أقطار الأرض.

ومرّ بى فى مجلسى عدد من النسوة يطفن بالروضة الشريفة ، فلم ألق إليهن بالا ، حتى إذا فرغن من طوافهن جلسن غير بعيد منى شاكيات داعيات ، فحاولت أن أصرف سمعى عن أصواتهن ودعواتهن كيما أفرغ لتأملاتى . لكنى ما لبثت أن سمعت صوت نشيج مختنق ، رددته جوانب الحرم فكان له صدى لافت ، وجمنا له حيناً حتى صرفنا عنه قارئ من قراء « المدينة » يتلو بعض قرآن الفجر .

وأدرت رأسى نحو الباكية ، فألفيتها إلى جانبى : امرأة

نحيلة الجسم بادية الضعف والشحوب ، تنتفض فى ألم مكبوت وتحاول عبثاً أن تخنق أنفاسها المتلاحقة . . .

وأنكرتها النسوة من حولها فتركن لها المكان ، وبقيت وحدى إلى جانبها أرنو إليها فى رثاء وعطف ، حتى رفعتْ نحوى وجهها الشاحب المبلل بالدموع وهتفت بى :

ــ ادعى لى !

قلت فى حرارة وتأثر :

ــ الله معك !

فأشرق وجهها لحظة ، وبدا لى أنها ليست من أهل الجزيرة ، فسألتها :

ــ غريبة أنت عن الديار ؟

أجابت وهى تشهق :

ــ وى ! غفر الله لى ولك ، أتكون غربة مع جوار النبى ؟ ولكن لى فى بلاد المغرب فلذةَ كبدٍ غالية ، وأشعر بنار الشوق تأكل قلبى ، فأفزع إلى ربى لعله يردها برداً وسلاماً . هل تحفظين يا ستى كتابَ الله ؟

قلت وأنا أعجب لانتقالها المفاجئ :

ــ أرجو ، فما الذى تبغين ؟

أجابت فى لهفة :

— تقرئين لى قصة نار « إبراهيم » فإنى أشعر كلما سمعتها براحة . . .

فأدركت ما تعنى . وتلوت عليها قوله تعالى :

« قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » .

وهنالك انبسطت أساريرها . وبان عليها الارتياح ، لكنها عادت فتجهمت وهمست تسألنى فى خوف وارتياب :

— وهل ترين أنى أبلغ عند الله منزلة سيدنا إبراهيم الخليل ؟

فرجوت لها ألا تيأس من روح الله . ثم هممت بالقيام معتذرة بأنى من قومى على موعد ، كى نسعى إلى « أحُدٍ » ثم إلى « قُبَاء » (١) قبل أن ترتفع الشمس وتلتهب الصخور والرمال .

فتوسلتْ إلىّ أن أبقى هنيهة ، ريثما تقص قصتها علىّ :

---

(١) قباء : قرية على بعد ميلين جنوبى « المدينة » على يسار الطريق إلى مكة . نزل بها الرسول عليه الصلاة والسلام فى هجرته التاريخية ، وبنى بها أول مسجد فى الإسلام .

* * *

نشأتْ فى بوادى المغرب الأوسط[١] ، بدويةً حسناء ترعى الغنم . ومات أبواها وهى بعد صبية . فكفلها أقارب لها غلاظ الأكباد . لم يكادوا يرونها تتفتح للربيع ناضجة الجسم رطبة العود ، حتى ركبهم الهمّ واستحوذ عليهم القلق ، فهم يترصدونها نائمة صاحية ، ويتعقبونها بالليل والنهار ، يحصون عليها أنفاسها ويؤولون حركاتها وإشاراتها ، ويتبعون مواقع نظراتها ومواضع خطواتها ، ويصغون إلى ما قد يَنِدُّ عنها من هذر الأحلام فى غفوة النعاس أو غشية الحمى .

وسألتهم أن يرحموها بالحباء فلم يفعلوا ، إذ لم تسعف عليه بيئتهم وهم بدو من فقراء الرعاة ، وهكذا استقبلت ربيع العمر فى ظل رماح مشرعة ، تنتظر بها نظرة شاردة أو ضحكة ناعمة ، كى تمزق بدنها وتبعث به إلى القبر : أكرم مأوى للأنثى فى شريعة البداة الجفاة !

ولم تكن تدرى كيف تنأى عن مواطن الشبهات الظالمة ، فقد بدا أن قومها لم يكن يُرضيهم منها أىُّ حال :

---

(١) فى كتب السلف ، يطلق المغرب على الشمال الإفريقى من ليبيا إلى مراكش . وربما أطلقوا المغرب الأوسط على تونس .

إن وجمت، قيل محزونة أرهقها الانتظار، وإن ابتسمت قيل عاشقة لقيت الحبيب ! .

إن مرضت قيل مجفوة آدها الهجر، وإن صحّت قيل راضية صفا لها الحب . . .

إن نامت قيل حالمة تهفو إلى طيف المحبوب، وإن سهرت قيل مسهدة جفاها الرقاد . . .

إن تجملت قيل فاجرة تتهيأ للقاء، وإن أهملت زينتها قيل ضالة رحل عنها من تهواه ! !

وأنهكت هذه الحياة أعصابها حتى أوشكت أن تصاب بخبال، فدعوا لها ضاربي الرمل وقارئي الكف، كي ينزعوا منها قهراً ذلك السر الموهوم الذي تكتمه، وما كان سرها سوى هذا الصبا الريان الذي تفتح برعمها وازدهر . .

وحين أعياهم أمرها، زعموا أن لها عاشقاً من الجن، فاستحضروا الرقاة وضربوا الدفوف كي يبرئوها من مس الجان، وما كان الذي بها سوى اللمسة الساحرة من فورة الربيع وحيويته الدافقة . . .

* * *

ثم كان لهذا العذاب آخر . . .

أو هكذا ظنت وظنوا . . .

زوجوها من أحد شيوخ القبائل المسنين ، فأراحوا أنفسهم من لعنة الشك وأراحوا فتاتهم من محنة الترصد . وطاب لهم ولها أن يتبدوا ربيعها المسئول عن كل ما لقيت ولقوا ، وأن يلقوا عليه ركاماً من ثلوج الشتاء ، تُخمد جذوته وتذهب بعبيره الفياح !

لكنها راحة لم تطل . . .

فما كادت تضع غلاماً جميلا فى العام الثانى من زواجها حتى حامت الظنون حولها من جديد ، وكانت عشيرة الزوج هى التى أساءت فيها القول ، وكأنما كرهت أن تذهب هذه الصبية الغريبة وولدها الرضيع ، بمال شيخهم الهالك . واستطاع الزوج أن يحميها من ظلم العشيرة ويرد عنها أذاها ما عاش ، فلما مات أمسكت القبيلة عنها ولدها ، وسرّحتها إلى قومها وحيدة خائبة ، تندب زوجها فى الأموات وولدها فى الأحياء !

ولم يحسن قومها استقبالها وهى تعود إليهم ذليلة مطرودة ، فأقامت بينهم ما أقامت كسيرة القلب والطرف . تقضى النهار كله عاملة كادحة ، فإذا جن الليل انتبذت من مسامر الحى

مكاناً قصيًّا وانطوت على أحزانها تجترها فى هدوء وصمت . . .

حتى وفد على الحى ذات ليلة وافد غريب جاء من أقصى المغرب يسعى فى طريقه إلى الحجاز ، وقد كلَّت قدماه من طول السُّرى فنزل بالقوم يلتمس القرى ريثما يريح بدنه المجهد ، ثم يعود فيضرب فى الأرض ساعياً إلى بيت الله . وأمضى فى ضيافة القوم ثلاث ليال لم يكف خلالها عن التغنى بشوقه إلى زيارة الرسول وحنينه إلى الروضة الشريفة . . . هناك حيث ينسى المرء همومه وأحزانه ، ويجد نفسه فى جوار النبى الحبيب عليه الصلاة والسلام .

وأخذتها عيناه فى كل ليلة ، وهى تصغى إليه من ركنها المنزوى ، فرقَّ قلبه لهذا الربيع الحزين وذاك الحسن الذابل . ولما عرف قصتها دعاها إلى أن تلوذ بالحرم الأمين لتلقى هناك أحمالها ، فاستجابت للدعاء دون تردد ، وتشبثت بالرحيل معه ضارعة إلى قومها متوسلة ، مستعينة بالله على من يصدها عن سبيل الله .

قيل لها : لكن الإسلام لا يأذن لك بالحج إلا فى صحبة رجل من محارمك .

فكادت تيأس لولا أن تقدم الرجل الغريب يطلبها زوجة

وقد راقت فى عينيه وطاب له أن يتخذها صاحبة تهون عليه مشقة المسير ووحشة المسرى . . .

ثم انصرف بها ، يبغيان مكة المكرمة ، ومن ثم إلى المدينة المنورة . . .

* * *

تبعت زوجها مشوقة هائمة ، تريد أن تشكو إلى الله بثها وحزنها وتنفض فى ساحة الحرم همومها وأوجاعها ، وقد هون عليها ذلك كل ما لقيت من عناء السفر ووعثاء الطريق . وكلما نال منها الإعياء وأوشكت أن تتهاوى دون الغاية ، تراءت لها القبة الخضراء من بعيد ، تسعفها بمدد من القوة والاحتمال .

وبلغت غايتها وفيها رمق من حياة ، فأسندت كيانها المتداعى إلى جدار الحرم المبارك ، فردّت إليها الروح ، ورفعت رأسها إلى السماء مبتهلة داعية .

وكانت تظن أن رحلتها ذات رجعة ، وأنها سوف تثوب إلى ديارها بعد أن تقضى من الأراضى المقدسة وطراً ، لكن زوجها أنبأها عقب وصولها إلى « المدينة » أن لا رجعة ولا إياب ، بل المقام فى دار الهجرة حتى أوان الرحيل إلى الدار الآخرة .

ومضى عام فى إثر عام ، وهى تغدو إلى الحرم النبوى

مع مطلع كل فجر ، فتقيم به نهارها وقطعة من الليل ؛ ثم تأوى كارهة إلى قاعة صغيرة فى « حارة الأغوات » حيث ترقد منصرفة عن زوجها ، لا تكاد تبادله حديثاً .

لقد شعرت بغتة أن كل ما بينها وبين هذا الرجل الصالح قد انتهى منذ استقر بها المقام فى « المدينة المنورة » . وكانت تؤول هذا الشعور بأنها ما تزوجته إلا لكى يُؤْذَنَ لها فى المسير إلى البقاع الطاهرة ، ثم تعود إلى بلاد تُظِلُّ ولدها . أما وقد جاء بها إلى «المدينة» إلى غير عودة ، فلْيدعْها إذن إلى جوار الرسول ، فما لها فى غربتها ملاذ سواه !

لكنها فى أعماقها كانت ترى هذا الزوج مسئولا عما تعانى من شوق طاغ إلى ولدها :

أو لم يزين لها الزواج على غير هواها ، ويَعِدها بالسلو والنسيان ؟

أو لم يزعم لها أنه قادر على أن يبدل حياتها الحزينة بأخرى لا تذوق فيها خوفاً ولا شجناً ؟ ما بال شوقها إلى ولدها يستعر لظاه حتى ما يهدأ لها بال ولا يقر لها قرار ؟ !

ما بالها لا يكاد بصرها يقع على صاحبها حتى يثور بها لاعج الحنين إلى ابنها النائى ، فتجد لهذا الحنين مثل لفح

النار والدمع الحمر ؟

وكأنما وجدت أخيراً مَنْ تُحمله تبعة ما لقيت فى حياتها الشقية منذ مات أبواها ، ومَنْ تأخذه بذنب أولئك الذين اضطهدوها وسرقوا صباها ثم سرقوا ولدها ، دون أن تجرؤ على الشكوى أو الاحتجاج !

وأحسّتْ لذلك نوعاً من الرضى ووجدت فيه منفذاً لقهرها المكبوت وأشجانها المكتومة ، فراحت تسأل صاحبها عن صباها المضطهد ، وربيعها الموءود ، وأمومتها المحرومة المعذبة !

وكان الزوج يلقى ثورتها مستخفّاً بها ، فلما استمرأت طعم التمرد عليه لم يجد إلا العصا أداة لتأديبها وزجرها ، فكانت تهرب من الدار طول النهار مستجيرة بحمى الحرم الأمين ، فما تكاد تدخل من « باب جبريل » القريب من مسكنها حتى تنسى عدوّها ، وتستغرق فى صلواتها ودعائها ، ضارعة إلى الله أن يجمعها بولدها ، أو فليطفىء برحمته وقدرته ، هذه النار التى ترعى أحشاءها وتشوى كبدها . . .

* * *

وتنفس الصبح وأنا فى مجلسى أصغى إلى حديثها المرير ، حتى إذا أفرغت شكاتها ونفست عن شجونها ، أطرقتْ صامتة

obeikandl.com

خاشعة ، وبدا لى أنها قد انصرفت عنى تماماً ، فألقيتُ عليها نظرة رحمة ، ثم قمت أخطو وئيداً فى ساحة الحرم ، رانية إلى أسراب الحمام التى تمرح هناك آمنة لا تُراع ! .

المدينة المنورة : ١٥/٢/١٩٥١

obeikandl.com

العابدة

« ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »

كانت السيارة تمضى بنا من « جدة » مسرعة ، تريد أن تبلغ بنا « مكة » قبل أن يدركنا الليل ويلفنا الظلام ، وقد أخذتنا شبه غفوة حالمة ونحن نحدق فى الجبال الصخرية التى تحف بجانبى الطريق فى شموخ صامد ، وأشعة الغروب تلقى ظُلة رقيقة من ضوئها الشاحب على القمم الجرداء ، ثم تنساب فى رفق على السفوح العارية التى أرهقها قيظ النهار .

وأوشكت السيارة أن تتم أربعين ميلا ونحن لا نرى على الأفق سوى الجبال الصُّم والتلال المتراكبة والوديان الضيقة المفروشة بالحصا والرمال ، ثم لاحت لنا « مكة » فجأة من بين الفجاج ، فلم نتمالك أن هتفنا من أعماق قلوبنا فى ضراعة وابتهـــال :

— « لبيك اللهم لبيك . . . »

ورددت البطاح أصداء ابتهالنا ، فخيل إلينا أن الوادى قد امتلأ بجحافل المهاجرين والأنصار ، تتدفق من ناحية الشمال لتدخل مكة ظافرة ملبية ، مع المصطفى عليه الصلاة والسلام ، يوم الفتح : فى السنة الثامنة لهجرته . .

* * *

وطفنا بالكعبة سبعاً ثم خرجنا نسعى بين « الصفا » و « المروة » حتى إذا أتممنا المسعى جلستُ على درج المروة ، تجاه الوادى ، أشرف على البلد العتيق . . .

ولم أكن ، حتى تلك اللحظة ، أفكر فى شىء سوى هذا التاريخ الرائع الممتد الذى صنعه أمىٌّ يتيم ، شهدته بطحاء مكة يرعى الغنم ، أو يخرج مع القوافل أجيراً أميناً لسيدة ثرية من قريش . ثم اصطفاه الله رسولا فما رحل عن الدنيا حتى حطم أصنام الكعبة ، وشهد بعينيه راية الإسلام تخفق على كل بقعة فى أرض العرب ، وسمع بأذنيه مؤذنه « بلال » ينادى من فوق سطح الكعبة : « الله أكبر » فيستجيب له بالجزيرة مئات الألوف ممن دخلوا فى دين الله أفواجاً . . .

أجل ما كنت حتى تلك اللحظة التى أتممت فيها المسعى ،

أفكر فى شىء سوى هذا التاريخ المجيد فى الذى صنعه أمّ يتيم ، هاجر من بلده ذات مساء مع صاحب له صدّيق ، فما مضى على هجرته ربع قرن حتّى كانت دعوته تزلزل عروش الأباطرة والأكاسرة . وتدك حصون الطغاة والجبابرة ، وتجتاح ما عرفت الدنيا يومئذ من ممالك وامبراطوريات !

غير أنى لم أكد أجلس على درج « المروة » الصخرى وأرى الساعين يهرولون أمامى داعين مكبرين ، حتى تراءى لى من وراء تاريخنا الإسلامى . طيف « هاجر » وهى تهرول فى هذا الوادى باحثة عن قطرة ماء لتروى غلة وليدها إسماعيل .

* * *

خرجتْ به من خيام سيدها « إبراهيم » — عليه السلام — طريدة منبوذة ، كلُّ ذنبها أنها رُزقت غلاماً و « سارة » ، الزوجة السيدة عاقر عقيم ! وما كانت « هاجر » هى التى سعت إلى « إبراهيم » لتهبه ولداً ، وإنما قدمتها إليه زوجه سيدتها « سارة » فى لحظة يأس ، لعل ذلك يروى غلته ويهدئ من شوقه الطاغى إلى الأبناء ! ولعلها ما سمحت لزوجها فى جاريتها المصرية . إلا وهى ترجو ألا تثمر التجربة . فيكفّ الزوج عن ذكر الولد ، ويخنق فى أعماقه أمل الأبوة المحرومة الراجية .

لكن التجربة لم تفشل . وشاء الله أن تحمل « هاجر » ؛ فأحست السيدة العاقر مرارة كادت تفسد عليها حياتها ؛ وخيل إليها أنها صغُرت فى عينى جاريتها . فشكت ذلك إلى زوجها قائلة :

— ظامى عليك ! أنا دفعت جاريتى إليك فلما حملتْ صغرتُ فى عينها ! يقضى الرب بينى وبينك .

قال إبراهيم :

— هى ذى جاريتك فى يدك ، فافعلى بها ما يحسن فى عينيك .

فلم تكد « سارة » تظفر بهذا التفويض من زوجها ، حتى أسرفت فى إذلال « هاجر » إلى أن هربت من وجهها وهامت على وجهها فى البرية ، ثم عادت بعد حين فوضعت فى حجر إبراهيم ولده « إسماعيل » .

ولم تطق سارة على ذلك صبراً ، فما زالت بإبراهيم تحضه على أن يطرد هذه الجارية وابنها وهو يتردد مشفقاً ، ثم استجاب لزوجته آخر الأمر ، ومضى بهاجر منطلقاً من خيامه ، وراح يضرب فى الصحراء وهى تسير من ورائه

صامتة مستسلمة ، متشبثة بصغيرها الرضيع ، لا تكاد تفكر فى شىء إلا فى نجاتها به . . .

* * *

وأبعد « إبراهيم » فى السير حتى بلغ أطلال البيت العتيق وسط المهمه القفر ، فوضع هناك هاجر وإسماعيل ، وترك لها جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم انثنى ليعود من حيث جاء.

وتلفتت الأم حولها فأفزعها القفر الموحش لا أثر فيه لحياة ، وجرؤت على أن تخطو وراء السيد لتسأله مسترحمة :

— أين تمضى وتتركنا بهذا الوادى المقفر حيث لا دَيّار ولا نافخ نار ؟

فلم يجب . . .

وأعادت سؤالها مرة ، واثنتين ، وثلاثا ، وهو منصرف عنها صامت لا يجيب !

ولم يبق لها من بعد ذاك إلا أن تتساءل :

— آللهُ أمرك بهذا ؟ ! .

وإذ ذاك فقط أجاب إبراهيم :

— نعم .

ولم يزد . . .

قالت هاجر :

— إذن فالله لا يضيعنا . . .

ورجعت إلى موضعها الأول بجانب الأطلال ، على حين مضى هو فى طريقه لا يلتفت ، إلى أن غيَّبتْه ثنيَّة الوادى ، فاستقبل البيت العتيق بوجهه ودعا ربه فى خشوع :

« ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

واستأنف مسيره فى طريق الشمال ، عائداً إلى أرض كنعان .

* * *

وخيم على الفلاة صمت مرهق لم يلبث أن مزقه لهاث أم عطشى ، وصياح رضيع جائع ، جف النبع الذى يغذوه ويرويه .

لقد نفد الزاد القليل الذى فى الجراب ، وكذلك نفد ما فى السقاء ، وتلاحقت صيحات الصغير وبدأ يتلوى من ظمأ وجوع ، فتركته أمه وانطلقت تبحث عن قطرة ماء . . وحملتها قدماها إلى جبل « الصفا » هناك ، فصعدت فوقه

لتشرف من علٍ على الوادى : راجية أن ترى إنساناً أو أثراً لحياة . فلما لم تر إلا الخلاء المقفر ، هبطت إلى الوادى وهرولت حتى أتت « المروة » فعرجت على السفح لعلها ترى أحداً ، ولا أحد . . .

وظلت هكذا تهرول من هنا إلى هناك ، ساعية بين الصفا والمروة : مرتين ، وثلاثاً ، وخمساً ، وسبعاً ، حتى نال منها الجهد وأشرفت على الهلاك من ظمأ وإعياء ، فتهالكت على الصخور منهوكة القوى دون أن تجرؤ على الدنو من صغيرها المعذب . وإذ تناهى إليها أنينه ، غطت رأسها بلفاعها كيلا ترى ولا تسمع ، فقد كان سماع حشرجته وهو يحتضر ، ورؤيته وهو يموت ، أقسى مما تحتمله بشريتها أو تطيقه أمومتها !

* * *

ووجمت السماء حيناً وهى تطل على المشهد الفاجع ، مشهد رضيع يهلك ظمأ وأم تأبى أن تتزود منه بنظرة وداع ، بل تصد عنه وبها من اللهفة عليه مثل الجنون ! .

وتجهمت الصخور وهى تردد صدى صوت الأم الواهن : « لا أنظر موت الولد » مختلطاً باللهاث والأنين ، وبدا كأن

شبح الموت يلقى على الوادى ظلاله الكئيبة وهو يدنو من الطريدين المعذبين ، لينتزع منهما الخفقة الأخيرة من الحياة !

لكن شعاعاً من رحمة الله لاح بغتة أمام « هاجر » فزحفت إلى حيث هداها الله ، وثمّ . . . . . ألفت نبعاً يفيض ماء !

وأكبت عليه تغرف منه ، حتى إذا رُدّتْ إليها الروح أحست باللبن يملأ ثديها ، فأرضعت طفلها المشرف على الهلاك .

ودبت الحياة فيه من جديد ، وعاش ليعمر هذه البقعة المقفرة ببنيه وأحفاده .

واستجاب الله لدعاء إبراهيم ؛ فإذا أفئدة من الناس تهوى إلى الوادى غير ذى زرع ، وإذا النبع — بئر زمزم — يجذب القوافل فى آثار الرعاة .

عاش إسماعيل ليرفع هو وأبوه القواعد من البيت العتيق ، فيكون قبلة العابدين فى شتى أقطار الأرض ، ومهوى أفئدتهم فى كل حين ، يحجون إليه من الشرق والغرب ، ومن الشمال والجنوب ، ليطوفوا بالبيت ، ويسعوا مهرولين بين الصفا والمروة حيث سعت « هاجر » مهرولة منذ عهد موغل فى القدم ، تبحث لوليدها عن قطرة ماء .

وهذه هى بئر زمزم ، ما تزال فى مكانها قريباً من قبر هاجر يتزاحم عليها الحجيج ليظفروا من نبعها بجرعة مباركة ، كتلك التى ردّت الروح إلى أم هالكة ، ورضيع يحتضر !

* * *

يا له من تاريخ ! . .

إن جهاد أمٍّ فى سبيل وليدها ، قد تقبلته السماء ورأت فيه أسمى صورة من صور العبادة ، فجعلت من تلك القصة الإنسانية للأمومة ، سفراً يتلى فى « الكتاب المقدس » وجعلت من دعاء « إبرهيم » آية منزلة فى « القرآن الكريم » . . .

وكان مسعى « هاجر » وهرولتها بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، شعيرة من شعائر حج العرب فى الإسلام . . .

وظل حديث آلامها وعذابها وهمومها ، قصة تروى وحديثاً يؤثر .

وما كانت « هاجر » سوى أمة طريدة مضطهدة ، نُبذت مع وليدها بالعراء فى الفلاة الموحشة ، بواد غير ذى زرع . لكنها أم !

وكانت تلك الأمومة حسبها عبادة وقرباناً ! ! .

مكة المكرمة : ١٩٥١/٢/٥

آمنة

« . . . إلى التى عجز الرق عن تعطيل حسها ، وخنق عواطفها ، وإهدار آدميتها ، وإقناعها بألا حق لها فى الحب ، أو البغض : تحية ، ورثاء »

بلغنا فى رحلتنا بجزيرة العرب منطقة البحرين فى أقصى الشرق ، وبدا لى أن أزور بعض النساء العربيات الأصيلات ، المحجبات وراء أسوار منيعة من موروث التقاليد ، فصحبتنى صديقة كريمة إلى بعض مَن تعرف من سيدات القوم .

وحملتنا السيارة إلى دار صاحبة لها هناك ، فسعى خادم بين أيدينا عبر ممر طويل يفضى إلى فناء داخلى ، تطل عليه قاعة الاستقبال للحريم ، بعيداً عن الطريق العام .

وألفينا فى استقبالنا شابة مليحة سمراء ، قد اتكأت على إحدى الحشايا المنسقة فوق السجاد العجمى ، فنهضت لتحيتنا ثم جلست قريباً من الباب ، وعلى وجهها ظل ابتسامة نحيلة متعبة .

قالت صاحبتى تقدمها إلىّ : « زوجة السيدة »

ثم التفتت إليها قائلة :

ـ ما شاء الله يا آمنة ! أراك بصحة وعافية ، وكنت لما لقيتك آخر مرة ، عليلة تشكين .

فلاح على وجه « آمنة » ما يشبه التساؤل . وقالت لصاحبتى :

ـ كذا ترينى يا ست ؟ حمداً لربى ، أنا بخير ما بقيت فى هذى الدار .

قالت لها السيدة :

ـ ولكن دارك غير بعيدة فيما أعلم .

فانتفضت « آمنة » وهى تقول مؤكدة :

ـ ما أعرف لى داراً غير هذا المكان ، وليس لى فى سواه مأرب ، ولا لى عنه منصرف ، حتى الموت !

صمتنا لحظة ، ثم عادت صاحبتى تسأل :

ـ وزوجك يا آمنة ؟

قالت الشابة وفى نظراتها مزيج من الرعب والاحتقار :

ـ ذاك المخلوق البغيض ؟ ! ما عاد لى به شأن . طلقنى منه سيدى ، له الشكر ولله الحمد .

وكنت أتتبع هذا الحوار وأنا أعجب لما أسمع : أو لم تقل

صاحبتى إن « آمنة » زوجة السيد ؟ فما هذا الحديث العجيب عن دار أخرى وزوج بغيض؟ وما مكانها من هذا البيت إذن ؟ وفيم تشبثها به إن لم تكن ربته ؟ وكيف يطلقها السيد من زوجها ؟ ومن يكون الزوج إن لم يكن السيد ؟

ولحظت صاحبتى ما أنا فيه من حيرة فتبسمت ضاحكة تقول :

— لا يدهشك ما سمعت . أصل الحكاية أن آمنة عاشت مع السيد سنين عدداً ، زوجة جارية . ثم تزوج أخيراً من إحدى حرائر « المدينة » وزوّج « آمنة » من عبدٍ صانع أجير ، ويبدو أن « آمنة » لم ترض عن هذا الزواج ، فعادت إلى بيت سيدها ، وهذه هى تقول إنها لا تبغى عنه حِوَلا .

رددت « آمنة » فى إصرار :

— هو ما سمعتِ : لن أتحول عن هذى الدار إلا إلى القبر . لقد أخرجونى منها مرة كرْهاً ، ولن يخرجونى منها ثانية وفىّ نَفَس ! أعرف أنى جارية ، أَمة ، مُستعبدَة ، ليس لى أن أرغمهم على بقائى هنا ، لكنى أعرف أيضاً أنى لن أطيق الخروج ، ولن أرغم عليه حيَّةً ، فليقتلونى إذا شاءوا ، أو . . . !

وبترت حديثها بغتة ، إذ جاءت « السيدة » فى تلك اللحظة وعندئذ انكمشت « آمنة » فى مكانها تلقى على السيدة وعلينا نظرات طويلة ، دون أن تنبس ببنت شفة .

ونظرت أنا إلى « السيدة » : عروس فى ريعان الصبا ، رقيقة ناعمة . أنيقة معطرة ، تميس فى دلال وزهو ، وقد رشقت زهرتين فى شعرها الفاحم المتموج ، وارتدت ثوباً من « الدانتلا » البيضاء ، وازينت كأنها تهيأ لحلوة العرس !

وجيء لنا بالقهوة والفاكهة فأصبنا منها ما اشتهينا ، ودار بيننا حديث هين عن دنيا النساء .

وعلمت أنها من بنات « المدينة » وقد أمضت فيها طفولتها وصباها ، لم تخرج منها قط إلا مرة واحدة منذ ستة أشهر ، يوم جاء زوجها فحملها بالطائرة إلى ساحل الخليج .

ولما سألتها إن كانت أشفقت من ركوب الطائرة ، أجابت فى مرح :

— هبيني أشفقت ، فماذا بالله كنت صانعة ؟ إن الرحلة من « المدينة » إلى « مكة » على ظهور الإبل ، تستغرق عشرة أيام ، فما بالك بالرحلة إلى نجد فالأحساء ؟ هل ترينها نزهة طيبة لعروس لم تخرج قط من « المدينة » ؟

فضحكنا جميعاً إلا «آمنة» ! قالت بصوت خافت ، وهى تعبث بخيوط اقفاعها :

— أما أنا فما استطعت . سألنى سيدى أن أصحبه إلى «المدينة» يوم طار إليها ليأتى بالسيدة العروس ، فرجوته أن يعفينى من هذه الرحلة ، إذ أنى أخاف ركوب الريح . . .

وصمتت بعد ذاك فلم تقل شيئاً .

حتى قامت السيدة لبعض شأنها فاستطردت «آمنة» قائلة وهى تنظر إلىّ :

— تالله ياستى ما كان بى من خوف ، وإنما ضعفت فكرهت أن أشهد بعينى جلوة العروس .

فسألتها صاحبتى :

— وأى شىء فى ذلك يا آمنة ؟ قسمة ونصيب ، وقدَرٌ يجرى عليك وعلى مثيلاتك ، أفما كنت تتوقعين أن تدخل هذه الدارَ سواك ؟

أجابت فى بطء :

— أجل توقعت ذلك . . . وتوقعت أن يلفظنى هذا المكان على غير رغبتى وهواى ! ويا لى من حمقاء ! أقول رغبتى وهواى ، وإنى لأعلم أن ليس لمثلى حق الرغبة والهوى !

لكنه الضعف ، فمعذرة . . .

قلت وأنا أحدق فى عينيها :

ــ لا حاجة بك يا آمنة إلى الاعتذار ، فما أذنبت . إنى أفهمك يا أخت ، كما أفهم نفسى .

فوجمت لحظة كأنها لا تصدق أذنيها ، على حين مضيت أقول :

ــ ولم لا يا آمنة ؟ أليس لك عواطف أنثى وطبيعة بشر؟ أو لم تلدك أمك مخلوقة سوية من الفصيلة الآدمية التى ينتمى إليها كل الناس ؟

فتهلل وجهها غبطة ، وامتلأت عيناها بالدموع : لكن وجومها عاودها بعد قليل فتنهدت قائلة :

ــ ليت واحسرتاه أعرف أبوى ، غير أنى لا أفتأ أتمثلنى وليدة فى حضن أم ! وكلما رأيت طفلا يسلم نفسه إلى صدر أمه ويغفو هانئاً بين ذراعيها ، هاجت شجونى وقلت لنفسى : « كذلك كنت من قبل ! » ثم أعود إلى واقعى فأرانى ولا أمَّ لى ! نسج الزمان بينى وبينها حجباً كثيفة لا ينفذ منها شعاع ولا يبدو من ورائها شىء .

وأمسكتْ عن الكلام ريثما دخلت « السيدة » وأخذت

مكانها بيننا ، فاستأنفت « آمنة » حديثها قائلة لى :

— سمعتك يا ست ترغبين فى زيارة نواحى البلدة . لو شئتِ لأذنت لى أن أصحبك الآن ، ولن تستغرق رحلتنا سوى ساعة وبعض ساعة .

فأدركت على الفور أنها تريد أن تنطلق معى خارج الدار . . .

ولم أتردد ، بل استأذنت مضيفتى وصاحبتى . وخرجت مع « آمنة » .

وتركت لها أن توجه سائق السيارة إلى حيث تبغى ، فانطلقت بنا إلى الخلاء ، على حافة الصحراء .

وقادتنى إلى مكان منعزل بين كثبان الرمال وراء جبل الظهران ، ثم راحت تكمل رواية المأساة :

* * *

لم تعرف عن نشأتها الأولى سوى ذكرى غامضة لطفلة صغيرة لاهية ، ضلت طريقها إلى أمها فى زحام كبير لا تدرى اليوم إن كان زحمة سوق أو احتفالا بعيد . وألفت نفسها بعد أيام تعبر البحر على ظهر سفينة كبيرة ، ثم تُسلَّم إلى رجل غريب يمضى بها على راحلته فى سفرة عبر الصحراء ، استغرقت

نحو أسبوعين قبل أن تلقى بها فى « مدينة الرسول » لتعيش هناك أعواماً ، وتتلقى الدروس الأولى فى مدرسة الرق وسوق العبيد !

ولم تكن الدروس فى مبدأ الأمر شاقة ولا مرهقة . فقد اكتفى السادة من الوليدة بأن تلاعب صبية الدار ، وأن تلازمهم كظلهم أقاموا فى البيت أو انطلقوا إلى الملاعب . وكان طعم الحياة هكذا سائغاً مقبولا ، فإن السادة الصغار لم يكونوا يجدون حرجاً فى أن تشاركهم فى اللعب ، أو يرون فى جاريتهم غير رفيقة صباً وزميلة ملعب .

حتى شبت وشبوا ، فإذا بها تنزع فجأة من بينهم ، وتدفع إلى قوم غرباء ، يرحلون بها من جديد عبر البيد القفار . . .

وعبثاً حاولتْ أن تبقى مع من حسبتْهم أهلها ، وعبثاً حاول أترابها من صبية البيت : أن يحملوا أهلهم على الإبقاء عليها ؛ فقد بدا كأن الأمر مقرر لا يحتمل مناقشة أو رجاء !

ولما حانت ساعة الرحيل تمهلت الفتاة عند باب الدار تريد أن تملأ عينيها من منزل صباها ورفاق حداثتها ، فحالت الدموع بينها وبين ما تريد . . .

واندفع صبى من الأسرة يهتف بها ألا تحزن . فإنه

ماض معها إلى حيث يُسار بها !

فأشرقت أساريرها بعد تجهم ، على حين مضى الصبي يستأذن فى السفر خالته زوج أبيه ، إذ كانت أمه قد ماتت قبل عام ، وجاءت أختها فشغلت مكانها من الدار .

ولم تكد الخالة تسمع حديثه عن رغبته فى مرافقة « الوليدة » حتى قهقهت ضاحكة ، ثم تطوعت فألقت عليهما درساً فى الفارق الرهيب بين السادة والعبيد .

وكانت تلك هى المرة الأولى التى تسمع فيها الفتاة أن من البشر من يباع ويشرى ، دون أن يكون له من أمره شيء ، أى شيء !

وأدركت أنها من هذا الجنس المنبوذ الذى لا أهل له ، ولا وطن ، ولا أمس ، ولا يوم ، ولا غد . . .

وعراها وجوم ذاهل ، فاستسلمت لما يُراد بها فى ذلة ، واستقبلت طريقها المجهول دون أن تلقى كلمة وداع للسيد الصغير الذى أعجزه أن يحميها من مصيرها المحتوم ، فانثنى يبكى لها ، وعليها . . .

وأعفاها ذهولها الطارئ من الشعور بالمحنة ، أو لعل وضعها الأليم قد ألغى حقها فى مثل هذا الشعور .

* * *

حتى إذا عاودها وعيها بعد أيام ، تلفتت وراءها تُطلّ على عالمها الماضى ، فلم تجد سوى الصحراء الممتدة إلى غير مدى : غامضة كئيبة موحشة . . .

وعادت تنظر أمامها متسائلة عن المصير المنتظر ، فلم تجد سوى المتاهة الضالة العمياء !

وتناهى إليها فى تلك اللحظة ، صوتُ حادى القافلة يَعِد الإبل بالرِّى والراحة بعد الرحلة المجهدة ، فطاب لها أن تبكى ، لكن نظرة صارمة من وجه « المشترى الغريب » أمسكت الدموع فى مقلتيها حبيسة مترنحة . . .

وتمنت آنذاك لو أنها ناقة فى القطيع ! إذن لوجدت إلى جانبها من يحدوها فى رفق ، ويغنى لها فى حنان ، ويَعدها بالراحة والظل والرى . . .

* * *

حين وصلت « آمنة » إلى هذا الفصل من قصتها ، خنقتها العبرات ، فتركتها تبكى ، حتى أراحها البكاء ؛ فاستأنفت الكلام قائلة :

« ظلت القافلة تضرب فى البيداء أياماً وليالى حتى أشرفت على نجد ، وآن لنا أن نحط الرحال .

وقادنى الغريب إلى دار رحبة ، حيث أسلمنى إلى سيد كهل هناك ، فتفرس السيد فى وجهى حيناً ، ثم أسلمنى بدوره إلى القائمة بشئون الدار .

وبدأت عهداً جديداً ، شتان ما بينه وبين العهد الذى كان. بدت لى الدار موحشة خراباً برغم ضجيج النسوة اللواتى كن يملأنها . لقد افتقدتُ فيها الصبية والأطفال ، وألفيتنى أعيش وسط جمع متناكر من النساء !

كن أربعاً ، متفاوتات السن ، مختلفات السحنة واللون ، لكنهن متماثلات فى الزى والمظهر والمستوى ، وقد حسبتهن زوجات السيد ، لكنى ما لبثت أن عرفت أنهن جميعاً من الإماء ، جاء بهن السيد واحدة بعد أخرى ، يرجو أن تلد له إحداهن ولداً ، فلم يحقق الله الرجاء .

وكانت هناك خامسة ، سبقتهن جميعاً إلى بيت السيد ، ثم تقدم بها العمر فتركت مكانها فى الحريم ، وتفرغت لخدمة الدار ، يعاونها جمع من العبيد .

وإلى هذه الأمة الكهلة ، ترك السيد أمرى ، فقامت بمهمة إعدادى للمحل الذى ينتظرنى بين الجوارى الأربع .

ولم يستغرق هذا الإعداد سوى عام واحد ، ألفيتنى بعده

أنفرد بغرفة خاصة إلى جانب الغرف الأربع ، وأحظى دون الزميلات بأوفر نصيب من عناية السيد واهتمامه !

واستسلمت لحياتى الجديدة وقد أرضانى أن أكون موضع الغيرة والحسد ، فما عهدتْ الجوارى من سيدهن مثل تلك المعاملة الرقيقة التى أوثرت بها :

كنت إذا شعرت بوعكة ، حملنى السيد بين ذراعيه إلى فراشى ، وسهر على رعايتى ، يسقينى الدواء ، ويملأ غرفتى بأطيب المأكولات .

وكان إذا سافر ، عاد إلىّ بادىَ اللهفة ، وملء يديه الهدايا من ثياب وحلى وطيب .

وكاد هذا التدليل ينسينى أنى أمَة ، لولا بقية من المرارة كنت أشعر بها فى فمى كلما ذكرت اللحظة الرهيبة التى ودعت فيها صباى الخلىّ ، ولقّنت الدرس الأول عن محنة الرق . . .

أجل ، كدت أنسى . . . لكن الزمان لم يسمح لمثلى بالنسيان .

سافر السيد يوماً إلى الشام حيث غاب أشهراً ثلاثة أرهقنى فيها انتظاره ، فتشاغلت بتصور لهفته علىّ ، حين يثوب بهداياه .

وقد آب من سفره . . .

وكانت هديته الواحدة إلينا جميعاً ، أمة جديدة أنزلها المنزل الأول الذى كان لى ، واختصّها بما كان يؤثرنى به من رعاية وتدليل !

وانزويت فى الدار محاولة أن أستسلم ، فما كان من حقّى أن أثور ، أو أحتج ، أو أغضب ، أو أتألم !

حاولت أن أحتمل إذلال « المحظية » الجديدة وشماتة الأربع القديمات ، وأن أصغى إلى نصح صديقتى الأمة العجوز التى حرصتْ على أن تميت حسّى رحمة بى ! فما يجدى الألم فيما لا يد لنا فيه ولا طاقة لنا على تغييره .

وسهرتُ الليالى فى كفاح أليم غايته أن أخنق بشريتى وأعطل إحساسى ، حتى أفلحت فى أن أهيل فوق قلبى وروحى أكواماً من رماد المداراة والتصبر والاحتمال .

لكن هذه الأكوام انهارت بغتة ذات ليلة ، حينما رأيتُ السيد فى غرفتى التى هجرها نصف عام !

وكان بيننا موقف أليم ، عنيف مثير : أصر على أن أبقى له حيث يشاء ، كما فعلت زميلات لى من قبل ، وأصررت على أن يبيعنى ليعفينى من العيش فى هذا الجحيم .

قال مهدداً :

— لو ظللتِ على عنادك ، بعتك لبعض الرعاة الأجلاف .

فهتفت به متوسلة :

— افعل ! افعل بالله ! إن العيشة الجافية الغليظة الخشنة فى مضارب البدو ، أجمل فى عينى من البقاء فى هذه الدار الرحبة ، رافلة فى حلل من حرير !

فاشترط لكى يفعل ، أن أكون له كما كنت من قبل : الأمة المطيعة الوديعة ، ريثما يختار لى من يشترينى ويدفع الثمن .

* * *

وجاء المشترى ، وكان شاباً مهذباً من رجال الحكومة ، مر بنا فى رحلة له بنجد ، وكنت أظن أن موقف الوداع هذه المرة ، أهون من المرة التى سبقتها ، ولذلك عجبت حين شعرت بشجن عميق يملأ نفسى ، لما قبلتُ يد سيدى للمرة الأخيرة ، وحييت صديقتى الأمة العجوز ، ورفيقاتى اللواتى أحطن بى مودعات داعيات .

ولم أطق أن أطيل النظر إلى غرفتى التى تلقتنى صبية عذراء ، وأخرجتنى إلى الدنيا بعد ست سنوات ، امرأة قد شربتْ الكأس حتى الثمالة ، وبلت عيشة النساء ، واكتوت

بنار الهجر والغيرة والقهر .

وذكرتنى رحلتى من « نجد » برحلتى الأولى إليها ، فلبثت أيام السفر صامتة حزينة . وكان سيدى الجديد رفيقاً بى طوال الطريق ، فلم يضق بوجومى وانقباضى ؛ بل تركنى أجتر أحزانى فى هدوء !

وحططنا الرحال فى « الأحساء » فأدهشنى ألا أجد فى الدار امرأة سواى .

واتخذنى سيدى صاحبة له ، وزوجة ، وربة بيت ، فتفتح له قلبى المغلق ، وذقت لأول مرة طعم الحب ، واستمرأت حلاوة هذا الرق الجديد ، فانية فى السيد الحبيب مستغرقة ، وامتد بى هذا الحلم الهنىء حتى أتم سبع سنين . . .

« ثم كانت اليقظة الفاجعة !

أنكر الناس على رجلى أن يقنع بأمة عقيم ، وزينوا له أن يأتى بأخرى قد تنبت « البذرة » التى عجز كيانى المجدب عن إنباتها .

وكان لكلام الناس فى أذن سيدى وقعُ السحر ، فطار إلى « المدينة » وعاد بعروس من الحرائر ، حملت له « البذرة » المشتهاة ،

ولم يهن عليه أن يبيعنى ، فأخرجنى إلى دار قريبة ، زوجةً لصانع أجير ، من طبقتى .

وحاولت هذه المرة أيضاً أن أستسلم لقدرى ، لولا هذا القلب الذى يخفق بين ضلوعى ، متشبثاً بالدار التى أظلتنى سبع سنوات ، ومتعلقاً بالرجل الذى كان لى السيد والأب والأخ والزوج والرفيق الحبيب !

قال لى سيدى : « صبراً يا آمنة ، فقد تألفين العيش مع زوجك على مر الأيام » .

لكن الأيام مرّت ، والشهور ، وأنا أزداد نفوراً من هذا المخلوق واشمئزازاً وبغضاً له ومقتاً .

وهربت منه ثلاث مرات ، فكان سيدى يردنى إليه فى كل مرة ويوصينى بمزيد من الصبر والاحتمال .

حتى غُلِبَ الصبر ونفد الاحتمال ، فأبيت على الزوج الكريه أن يمسنى . ولما حاول أن يخضعنى بالقوة . عدوت هاربة فى جوف الليل . واذت بدارى الأولى هذه . ضارعة إلى « السيدة » أن تدعنى أعيش لها أمة خادمة . أو فلتأمر السيد بانتزاع روحى من جسدى إذا شاءت ألا أبقى تحت سقف هذا البيت .

واستجابوا لى ، فكان الطلاق والخلاص ، وتُركت حيث أريد ، مكتفية بأن أسمع صوت سيدى ، وأرى وجهه ولو من بعيد . . .

وذاك حسبى من دنياى »

* * *

قلت « لآمنة » ونحن عائدتان إلى الدار :

— ترين يا آمنة ، لو وهبك السيد حريتك . . .

فلم تدعنى أكمل العبارة ، بل قاطعتنى فى مرارة :

— وماذا أفعل بهذه الحرية ؟ أى مكان لى على هذه الأرض إذا افتقدتنى الدار التى كانت لى يوماً جنة الحب ؟ ما انتفاعى بحياتى كلها ، وقلبى مصفد بأغلال رقه وهواه ؟

ثم صمتت ، حتى إذا اقتربنا من البيت أكبت على يدى تقبلها وهى تهمس :

— شكراً يا ستى ، ألف شكر ! كنتِ كريمة إذ رأيت فينا ، معشر الإماء ، مخلوقات بشرية ذات قلوب ، وأصغيت إلى واحدة عجز الرق عن تعطيل حواسها وخنق قلبها ، وإقناعها بألا حق لها فى الغيرة أو التألم والشكوى ، أو الحب والبغض .

وغابت « آمنة » عن عينى ، فلم أردها حتى همت بمغادرة الدار . وإذ ذاك لمحتها تخطو نحونا شاحبة متداعية ، ثم تقف بباب العربة لتقول لنا مودعة .

— فى أمان الله . . . .

الدمام : جزيرة العرب : ١٠/٢/١٩٥١

obeikandl.com